مثالية في الفلسفة الألمانية
أم مثالية للفلسفة الألمانية؟

أ. حيرش بغداد محمد(*)

الكلمات المفتاحية

فلسفة ألمانية- التنوير- النهضة- المثالية- البحث الجامعي.

١- من الفلسفة العربية المعاصرة إلى الفلسفة الألمانية (مسار خاص)

إن مسار البحث الجامعي إما أن يكون تعميقا لبحث سابق بمواصلة البحث في نفس الموضوع المتطرق إليه في الليسانس والماجستير ثم في الدكتوراه، وإما أن يكون مسار البحث توسيعا للأفق وانفتاحا مستمرا على إشكاليات جديدة. أعتقد أن البحث الذي أقدم عليه حاليا، والموسوم بـ «الخطاب المثالي في الفلسفة الألمانية الحديثة» يدخل في هذا النوع الثاني، ففي رسالة الماجستير كان اهتمامي متمحورا حول التراث العربي الإسلامي وحول إشكاليات النهضة العربية، وقد عنونت رسالة الماجستير بـ: «القراءة النقدية للتراث وعائق التكفير- نصر حامد أبو زيد نموذجا -» أما موضوع رسالة الدكتوراه فهو مختلف تماما عن الأول فهو يتناول بالدراسة الحضارة الغربية الحديثة، وبالتحديد الفلسفة الألمانية، وقد اخترت للموضوع ثلاثة نماذج هم: ليبنتز، كانط، هيجل. إذ هناك من جهة انتقال من فضاء حضاري عربي إسلامي إلى فضاء غربي مسيحي، ومن جهة أخرى انتقال من التاريخ المعاصر الذي هو في صدد التشكل، إلى تاريخ حديث قد تشكل.

(*) باحث بالمركز الوطني للدراسات الأنتروبولوجية/CRASC.
البريد الإلكتروني: hirebagh@yahoo.fr.

إن الاهتمام بالخطاب المثالي في الفلسفة الألمانية الحديثة يستدعي العودة إلى عصر الأنوار، الذي كان محكوما بتصورات، وبمشاريع نهضوية متناقضة، وقد كان لكل من التصور الفرنسي، والتصور الألماني تأثيرًا كبيرًا في رسم ملامح الحضارة الغربية. من هنا وجدت نفسي أعود إلى الموضوع المتعلق برسالة الماجستير التي تطرح هي أيضا إشكالية النهضة التي يرى التنويريون العرب أنها يجب أن تكون على نموذج النهضة الأوروبية، وبالنسبة لأبي زيد لا مناص من استخدام المنهج التاريخي الواقعي لفهم النص الديني، ومن ثمة لا بد من «التثوير»[1] الذي يقترحه كبديل عن «التنوير»، وهو بهذا يختار نمط الحداثة وفقا للنموذج الفرنسي لأنه يبحث عن التغيير الجذري، إنه يبحث عن إعادة إحداث ثورة مشابهة للثورة الفرنسية التي نقلت المجتمع من القرون الوسطى (محاكم التفتيش، النظام الملكي المطلق، سيطرة الكنيسة وغياب حرية الرأي وحرية المعتقد...) إلى النهضة (العلم، الحرية، الديمقراطية...) إن هذا التوجه نحو الفكر الفرنسي بدلا من التوجه نحو الفكر الألماني في تأسيس مشروع النهضة العربية الإسلامية يرجع إلى أسباب كثيرة نربطها بالفرضيتين الآتيتين:

الفرضية الأولى: صفة «المثالية» التي تلحق بالفلسفة الألمانية، تجعل الباحث ينفر منها، معتقدا أن «أزمة النهضة العربية» تستدعي حلولا عملية، وأن المثالية تبعدنا عن مثل هذه الحلول وتجعلنا نغوص في التخيلات والأوهام، وبالتالي لا نغير من الواقع شيئا.

الفرضية الثانية: إن انتصار الحلفاء على النازية في الحرب العالمية الثانية لا يعبر عن مجرد انتصار على حزب أو جيش، ولكنه انتصار كذلك على فكر، والذي أصبح موضوعا بين أيدي المنتصرين يقرؤونه كما يشاءون، بحيث أصبح من الصعب لاحقا على منتجيه الحقيقيين أن يدافعوا عنه أو يمجدوه. لقد أصبح التاريخ ملكا للمنتصرين يصنعوه و يقرؤه و يستفيدون منه بالطريقة التي تضمن لهم التفوق والتميز. هذا ما يفسر في اعتقادي توجه

(١) أبو زيد نصر حامد-الخطاب والتأويل- المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٧م. ص ١٦.
يقول أبو زيد بالحرف الواحد في هذا الكتاب: «والحقيقة أننا في مجتمعاتنا العربية الإسلامية في حاجة إلى ما هو أكثر من التجديد، نحن بحاجة إلى «تثوير فكري» هكذا نلاحظ أن أبو زيد يختار التغيير الثوري بدل الإصلاح.

المشاريع النهضوية العربية في أغلبها نحو الفكر الفرنسي أو الإنجليزي أكثر من توجهها نحو الفكر الألماني.

إن المثالية الناشئة في ألمانيا لها علاقة وطيدة مع الحركة العلمية والثقافية التي ظهرت مع عصر النهضة، كما أن لها علاقة مع مبادئ الدين المسيحي ومع الفلسفة اليونانية، كل ذلك خلق لدى الإنسان الألماني خاصة والأوروبي عامة ثقة أكبر في نفسه وفي ملكاته الفطرية والمكتسبة، مما أدى على اعتبار أن للفكر أسبقية على الواقع، ليس هذا فحسب بل اعتبار أن الفكر مستقل عن الواقع من جهة ومؤثر فيه من جهة أخرى. لقد جاء في قاموس اللغة الفرنسية بأن المثالية هي: «الموقف الذي يخضع الفكر والسلوك لمثال/Un idéal، وفلسفيا هي النسق الذي يرفع الفكر فوق الحواس والتجربة. وهي التوجه الذي يرجع كل وجود إلى الفكر»[1] المثالية تعني إمكانية سيطرة الفكرة على الواقع، بحيث أن الإنسان يبدي نوعا من «التعالي». المثالية وفق ذلك هي الدعوة القائلة بأن الفكر لا يتأثر بالواقع، وبأن الإنسان يصنع واقعه بحسب الأفكار المطلقة والكاملة والمنسجمة التي يملكها. الإنسان يمكنه أن يتعالى على الواقع ولا يتأثر بالصعوبات الموجودة.

مفهوم المثالية يرتبط في العموم بمعاني أساسية هي:

أولا: لا بد من المقاربة بين المثالية و«المثال»(Idée) فالمثال كما ورد في المعجم الفلسفي لجميل صليبا هو: «صورة الشيء التي تمثل صفاته، والقالب أو النموذج الذي يقرر على مثله، والجزئي الذي يذكر لإيضاح القاعدة، وإيصالها إلى فهم المتعلم»[2] المثال بهذا المعنى يأخذ معنى المثل/L'exemple الذي ينقل الذهن من الشمولية والكلية إلى الحالات الخاصة التي تساعد المتعلم على فهم معنى الكليات. هذا الموقف نلمسه عند ضرب الأمثال، ولكن معنى المثال عند الفلاسفة يأخذ بالخصوص طابعا تجريدا، كما هو الحال عند أفلاطون الذي ينسب إلى المثال معاني الكلية والمعقولية والأزلية والأبدي... مقابل الموجودات الحسية

(1) Idéalisme- Dictionnaire Quillet de la langue française (D→J) - Librairie Aristide Quillet 1975.

(٢) صليبا جميل - المعجم الفلسفي ج٢ - ص ٣٣٥.

القابلة للفساد. كما أن «المثل» أو «المثال» عنده هي مبدأ للمعرفة ومبدأ للوجود، فلا يمكن معرفة الجزئيات إلا بمعانيها وجواهرها، ولا يمكن للموجودات أن توجد بدون أن تكون قد استقت قوام وجودها من الأصل أو المرجع الأولى.

ثانيا: المثالية ترتبط بمفهوم «المثالي»/l'idéal الذي يطلق على صورة الشيء الكاملة والتامة، كما فعل أفلاطون في وصف «الأرض النقية»، ويقول الدكتور عزت قرني عن وصف هذه الأرض ما يلي: « فهذه الأرض تشبه أرضنا ولكن على الكمال والتمام، فألوانها أبهى من ألواننا وأكثر تنوعا، ومنتجاتها من أشجار وزهور، وكذلك جبالها وأحجارها الكريمة، أحسن وأكمل مما لدينا. وهي مزينة بالذهب والفضة بكميات وفيرة وأحجام هائلة وفي كل مكان...»[1] في هذا الوصف نلمس بعدا يوتوبيا، ورغبة في الوصول إلى الكمال. إن المثالي هو ما لا يتضمن النقص، وما ليس مختلطا بالشر. ترتبط المثالية وفق هذه الرؤية بمفهوم «العمل المثالي» هو العمل الذي يدرس الموضوع من جميع جوانبه من غير تقصير، مستعملا كل الوسائل وكل المناهج التي تسمح بالوصول إلى نتائج موضوعية أو دقيقة. قد يرتبط المثالي بالروحي في حالة الرغبة في معارضة الأهداف النفعية مع الأهداف غير النفعية. يقول صليبا: «وربما سمي بالروحي/Spirituel لما يقتضيه من سعة النظر، والإحاطة، ومنه قولنا: الحياة المثالية، وهي نقيض الحياة الضيقة أو الحياة النفعية»[2] فالشخص المثالي إذا هو الشخص الذي يحيا حياة عفيفة وفاضلة، لا يخضع لمطالب النفس الشهوانية، بأن يجعل منها هدفه الأساسي. يقدم لنا صاحب المعجم الفلسفي معنا آخر للمثالي، من خلال المعارضة بين الحسي وغير الحسي، فيكون كل ما هو ناتج عن العقل أو الفكر من تصورات، تخيلات، معاني...شيئا مثاليا، في مقابل الحقيقي أو الواقعي. والفيلسوف المثالي هو الذي يقيم مذهبه على أساس إعطاء الأولوية للفكر على الوجود الحقيقي. المثالية ستكون في أحد معانيها مرتبطة بالتحديد المفاهيمي السابق. يقول صليبا: «يطلق اسم المثالية بوجه عام على النزعة الفلسفية التي تقوم على رد كل وجود إلى الفكر بأوسع معانيه. وهي بهذا المعنى

(١) أفلاطون - فيدون (في خلود الروح) - ترجمة وتقديم دكتور عزت قرني، دار قباء (القاهرة)، ط٣ ٢٠٠١م. ص ١٠٣.

(٢) صليبا جميل - المعجم الفلسفي، ج٢- ص ٣٣٦.

مقابلة للواقعية الوجودية/Réalisme ontologique التي تقرر أن هناك وجودا مستقلا عن الفكر»[١] ويقسم صاحب «المعجم» المثالية إلى مثالية ذاتية أو شخصية/Subjectivisme تعتبر أن الوجود هو انعكاس الفكر الخاص بكل فرد على حداى، أما المثالية التي يمكن أن نسميها موضوعية، فهي: «التي ترد الوجود إلى الفكر بوجه عام فرديا كان، أو جماعيا، أو كليا»[٢] بحيث يأخذ الفكر دلالة أعم تجعل الفرد لا يرتبط بفكره فقط، ويجعل منه المنطلق الوحيد الذي يؤسس من خلاله للحياة، بل عليه الارتباط بفكر عام.

ثالثا: المثالية مرتبطة أيضا بمفهوم «المثل الأعلى»/Idéal, Standard والمقصود به ما يرضي العقل والعاطفة إرضاء كاملا. يقول صليبا في هذا الشأن: «ومعنى ذلك أن المثل الأعلى يدل على الصورة الكاملة التي لا تتحقق تحققا نهائيا، فهو حد غائي نتجه إليه من غير أن نبلغه، ووجوده ليس شبيها بوجود الموضوع الخارجي الثابت، وإنما هو شبيه بوجود النزوع اللامتعين»[٣] بمعنى أن الإنسان يبحث عن هدف سام وكامل ولكن من غير أن يتمكن من أن يحدده بدقة، فكلما بلغ الإنسان مرتبة ما كان يأمل فيها، كلما توجه إلى البحث عن شيء آخر سواها.

يمكن إذا تلخيص المعاني المتعددة للمثالية فيما يلي:

١- المثالية هي التي تجرد الواقع من كل المظاهر، وتعتبر أن الظواهر ما هي إلا تجليات الفكر.

٢- المثالية هي ما يثبت بأن الفكر هو الحقيقة الوحيدة الأكيدة، أما ما عداه فيدخل في نطاق الضن.

٣- المثالية تمثل العالم بكائن مفكر، وهي ترى بأن الكائنات تنحدر من مبدأ روحاني (الفكر، الوعي، المفهوم...)

٤- المثالية تثبت الوجود الحقيقي لعالم مفاهيمي (واقعية المعقول).

---

(١) المرجع السابق. ص ٣٣٧.

(٢) المرجع نفسه. ص٣٣٧.

(٣)المرجع نفسه. ص ٣٤٠.

٥- تعتبر المثالية أن كل واقع حسي يصبح بلا معنى، مما يجعل المثاليين يرجعون جوهر الكائن إلى الفكر أو إلى الوعي.

يمكن النظر إلى المثالية نظرة عامة، بحيث يمكن أن نعتبر أنها ملازمة لكل فلسفة. يقول Jean Largeault: «لقد كتب شوبنهور بأن «على الفيلسوف الحقيقي أن يكون مثاليا». وحسب برنارد بورجوا «المثالية هي بشكل أساسي الفلسفة، وكل فلسفة هي مثالية» كنتيجة للمصادرة - المثالية - أنه لا توجد معرفة إلا بالأفكار»[1] هذا ما يجعل المثالية ترتبط بكثير من الاتجاهات الفلسفية كاليوتوبيا والميتافيزيقا والتصوف والنزعة الروحية.

فيما يخص «المثالية الألمانية» فهي: «اسم عام/ Générique أعطي لجملة من الفلسفات المطورة في ألمانيا في نهاية القرن ١٨م وبداية القرن ١٩م. ومن أهم ممثليها: يوهان غوتليب فيخته، شلنج وهيجل»[2] وتشير «الموسوعة الحرة Wikipédia» إلى أن هذا الوصف (وصف المثالية الألمانية) مجرد لصق لبطاقة/étiquette يبقى قابلا للنقاش بسبب وجود اختلافات كثيرة بين الفلاسفة الألمان أنفسهم، تجعل من الصعب وضعهم كلهم في خانة واحدة، كما أن حصر «المثالية الألمانية» في فيشته وهيجل وشلنج فقط لا يتوافق مع مفهوم المثالية في حد ذاتها، والتي يمكن أن تطلق حتى على الفلسفات التي كان أصحابها يعتقدون أنهم ليسوا مثاليين. لكن هذا الوصف لم يأتي من فراغ ففي التراث الألماني ما يدل عليه: «الشهادة الأولى حول المثالية الألمانية تتعلق بنص مسمى بأقدم برنامج للمثالية الألمانية/«Das älteste Systemprogramm des deutschen Idealismus» وإن كان تاريخه غير دقيق (١٧٩٧م) وقد تم التساؤل عن من يكون مؤلفه: تم استدعاء أسماء كل من هيجل، هولدرلين، شلنج. يتم اليوم الميل إلى هيجل»[3] يبقى إذا هذا الوصف متنازع عليه، من غير أن يحدد بدقه تاريخ ظهوره أو صاحبه الفعلي. تحصر «الموسوعة الحرة» المثالية الألمانية في الفلسفات التي أرادت أن تتجاوز الفلسفة الكانطية، أي الفلسفات التي أرادت التأكيد على إمكانية

(1) Largeault Jean – Idéalisme - Encyclopaedia universalis (corpus 11), France 1996. P889.

(2) Idéalisme allemand. (2007, octobre 19). Wikipédia, l'encyclopédie libre. Page consultée le 08:22, octobre 28, 2007 à partir de http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Id%C3%A9alisme_allemand&oldid=21946245

(3) Ibid.

وجود «ميتافيزيقا نظرية»/Une métaphysique spéculative وخاصة مع هيجل، مع العلم أن هذه الفلسفات تستعير من كانط كثيرا من مبادئه الأساسية فهم: «يأخذون منه كثيرا من الأفكار مثل أن الذاتية هي ركيزة كل فلسفة. إنهم يتبعون من وجهة النظر هذه كانط والذي بالنسبة له تكون الذاتية ركيزة الفلسفة المتعالية... كل من فيخته وهيجل يطورون هذه الفكرة من خلال مفهوم الأنا عند فيخته والفكر/الروح عند هيجل»[1] صعوبة تحديد مع من تبدأ «المثالية الألمانية» ومتى، تتبين من خلال توجه مركز البحث في المثالية الألمانية الذي يديره الفرنسي فيار برون، إلى التركيز على هيجل، أما برنارد بورجوا وهو من المختصين البارزين في الفكر الألماني يفرد كتابا خاصا بالمثالية الألمانية ويتطرق فيه لكل من كانط وفيخته وهيجل وشلنج كأعلام بارزين لهذه النزعة. لهذه الأسباب أرى من الضروري تبني مفهوما عاما للمثالية بحيث يمكن حتى لليبنتز الذي سبق هؤلاء بكثير من أن يكون واحدا من المثاليين الألمان. إن المثالية الألمانية قد أرادت تجاوز التعارض الموجود بين الميتافيزيقا وبين التجريبية، وقد أعادت التأسيس للميتافيزيقا عن طريق إخضاع التجربة كلية لها.

٢-الفلسفة الألمانية في الجزائر (جامعة السانيا نموذجا)

يتبين اهتمام دارسي قسم الفلسفة بجامعة وهران (السانيا) بالفلسفة الألمانية عموما وبمثاليتها من خلال الرسائل الجامعية (ماجستير، أطروحات دولة) فمن بين ١٥١ رسالة جامعية[2] موضوعة بمصلحة الرسائل الجامعية بالمكتبة المركزية لجامعة وهران، والمناقشة منذ ١٩٨١م إلى اليوم، يتوزع الاهتمام بالفضاءات الفلسفية كما يلي:

- يوجد فقط ١٨ رسالة مخصصة للفلسفة الألمانية الحديثة منها والمعاصرة.
- يوجد كذلك ١٨ رسالة مخصصة للفلسفة الفرنسية الحديثة منها والمعاصرة.

---

(1) Ibid

(٢) لقد قمت بتاريخ ٢٩/٣٠/٣١ أكتوبر ٢٠٠٧م بزيارة ميدانية لمصلحة الرسائل الجامعية بالمكتبة المركزية لجامعة وهران والتي كان فهرس الفلسفة يضم يوم ٢٩/١٠/٢٠٠٧م ١٥١ رسالة جامعية (ماجستير، دكتوراه).

- يوجد ٠٦ رسائل مخصصة للفلسفة الإنجليزية.
- يوجد ٠٧ رسائل مخصصة للفلسفة اليونانية القديمة.
- يوجد ٠٣ رسائل مخصصة للفلسفة الأمريكية.
- أغلب الأبحاث متوجهة إلى الفلسفة العربية الإسلامية وعددها ٨٦.

ستنتج كذلك أن الرسائل المشتغلة على الفلسفة الغربية سواء كانت ألمانية أو يونانية أو فرنسية...عددها لا يتجاوز ٥٢ رسالة، مما يبقيها أقل بكثير من الأبحاث المخصصة للفلسفة العربية الإسلامية، مما يستدعي مزيد من الدراسات حول الفكر الغربي من أجل الوصول إلى «الاعتدال» المطلوب.

إن الدارس للفلسفة الألمانية قد يجد أن هناك توافقا بين هذه الفلسفة وبين القيم الإنسانية السائدة في حضارتنا الإسلامية، وليس هناك من تعبير أفضل من ذلك الذي استخدمه حسيني ولد الفقيه في رسالته، حيث يقول: «أستاذنا الكريم[1] لم يكن بغفل لحظة أن يلفت انتباهنا إلى التلاقي ما بين فكر كانط من جهة، والفكر العربي الإسلامي من جهة أخرى. فكثيرا ما كان يأخذنا في جولة ما بين عطاءات كانط في «نقد العقل المحض» وإشراقات ابن عربي في «الفتوحات المكية» فنجد أننا نتحرك في فضاء فكري واحد لا يعرف الحدود والحواجز»[2] من خلال الاطلاع على بعض الرسائل الجامعية المتوجهة إلى دراسة الفلسفة الألمانية الحديثة منها والمعاصرة حاولت أن أستنبط ما يأمله الباحثون والدارسون من وراء دراسة هذه الفلسفة.

في رسالة آيت أحمد نور الدين المخصصة لإدموند هوسرل نلمس أن هناك دور جديد لا بد للفلسفة أن تضطلع به حيث أن: «مهمة الفلسفة لا تكمن في التعبير عن مختلف قطاعات الوجود، بل في الرجوع إلى عالم العيش الذي هو أرضية لكل ممارسات

(١) يقصد بالأستاذ الكريم الربيع ميمون.

(٢) حسيني ولد الفقيه - دور المخيلة في بناء المعرفة عند كانط- إشراف: الربيع ميمون- أطروحة ماجستير، جامعة الجزائر ١٩٩٦م. ص ٣.

الإنسان و إنجازاته، بما فيها العلوم الحديثة»[١] الفلسفة التي تمنحها لنا الفلسفة الألمانية المعاصرة مجسدة في هوسرل تعتبر كوسيلة لتجاوز أزمة المعنى بسبب ما آلت إليه العلوم والتقنيات. نفس هذا المسعى يتابعه مارتن هيدجر والذي تكشف عنه رسالة إبراهيم أحمد الذي يقول: «وفيما يخص تأثر «هيدجر» بالمذهب الظواهري الذي أسسه أستاذه «إدموند هوسرل» فلقد تأكد لنا أن هذا المذهب هو تأمل في لغة الظواهر، إنه المذهب أو الاتجاه الذي يحاول أن يجعل الجمل بدلا من أن تتحدث عن الموضوعات المادية تتحدث عن ما يعرف بالمطيات الماهوية»[٢] إننا بهذا الشكل نعود مباشرة إلى الفلسفة اليونانية في جانبها المثالي الذي يركز على ماهية الأشياء و يتوجه إلى البحث عن الأصل وعن المعنى في إطار الميتافيزيقا. إن الفكر المدشن من طرف «المثاليين الألمان» يتوجه نحو «الممكن» أو نحو «الإمكان» بدل الاكتفاء بمحدودية الشروط الواقعية، ولكنها كذلك فلسفة إنسانية تركز على الاختلاف لأنه: «حركة الكينونة ذاتها»[٣] الانطلاق من الممكن يجعل من الضروري الاعتراف باللامفهوم وباللامعنى وبالمنسي... «إن الفلسفة المعاصرة بعد «هيدجر» زودتنا بترسانة مفهومية من أجل قراءة فعالة تحيل اللامفهوم إلى مفهوم، أي توسيع رقعة الإمكان ومساحة الفهم»[٤] إنها استعادة للسؤال الفلسفي المهم حول سؤال الوجود. تقول حاج عبد الرحمن نعيمة أنه قد: «اهتم الإنسان بالأشياء والموجودات فأهمل الوجود وصار مغتربا. واللغة التي يستعملها هيدجر هي لغة السؤال عن حقيقة الوجود، وهو يعتقد أننا فقدنا هذه اللغة وأصبحنا نستعمل لغة الأشياء وهكذا فقدت اللغة جوهرها»[٥] لقد خصصت حاج عبد الرحمن أطروحتها لدراسة «إشكالية الموت» وهي الأطروحة الوحيدة[٦] المخصصة

(١) آيت أحمد، نور الدين- أزمة الذات في الفلسفة الغربية المعاصرة (إدموند هوسرل نموذجا) - إشراف: مولفي محمد وسواريت بن عمر- رسالة ماجستير، جامعة وهران ٢٠٠٥م. ص٩٤.

(٢) إبراهيم، محمد- إشكالية اللغة والأنطلوجيا (مارتن هيدجر نموذجا) - إشراف: الزاوي حسين وسواريت ابن عمر- رسالة ماجستير، جامعة وهران، ٢٠٠٤م. ص ٢١٣.

(٣) المرجع السابق. ص ٢١٦.

(٤) المرجع نفسه. ص ٢١٨.

(٥) حاج عبد الرحمن، نعيمة- إشكالية الموت في الفكر المعاصر -هيدجر نموذجا- إشراف: أنور حمادة- أطروحة ماجستير، جامعة وهران ١٩٩٨م. ص٢٤٧.

(٦) هذا التأكيد مرتبط بالدراسة الميدانية لفهرس الرسائل الجامعية الخاص بقسم الفلسفة لجامعة وهران=

لمثل هذه الإشكالية التي رغم أهميتها الأنطلوجية، إلا أن دارسي الفلسفة قليلا ما يجعلون منها موضوعا لرسائلهم، وذلك نظرا لأن «لغة الأشياء» حجبت «لغة الوجود» مفقدة اللغة جوهرها. إن المساحة الجديدة المتمخضة عن الفلسفة الألمانية تعترف بمبدأ رئيسي تطرقنا إليه من قبل عندما أشرنا إلى أن «الحكمة تكمن في الجنون» سواء عند ليبنتز أو عند كانط وفي المعتقد المسيحي نفسه. إن رسالة بودومة عبد القادر حول نيتشه تركز هي الأخرى على اللامعنى واللا-دلالة التي أقر بها نيتشه كبديل عن الحقائق الجاهزة والمعان المكتملة التي سادت الفلسفة اليونانية التي كان لها غاية تطابق الفكر مع ذاته كشكل من أشكال المعقولية والاطمئنان للحقائق المكتسبة. لكن تجربة «الاختلاف» الموجودة في الفكر النتشاوي فهي: «تأخذ الكتابة مأخذ الجد، ولا تحاول أن تقصي جسدها المهمل من قبل، فهي عبر التجربة ذاتها تحاول ترسيخ وتثبيت اللامعنى (non-sens) Le واللا-دلالة للكلام الفارغ»[1] إن أسلوب نيتشه لا يكرس التماهي (الماهية) بقدر ما يؤسس للاختلاف من خلاف الكتابة المفتوحة على المعاني الممكنة التي تتيح في نظر بودومة عبد القادر ممارية «الانزياح» وعدم «التمركز» على الذات. الممارسة النيتشوية كان لها تأثير على: «هيدجر(Heidegger)، وليوتار(Lyotard)، ودولـوز(Deleuze)، فوكو(Foucault)، وديريدا (Derrida) وفاتيمو(Vitimo)...»[2] هؤلاء كلهم عملوا على فضح «مركزية الأنا» و«العقل» و«الذات الغربية». كذلك في مدرسة فرانكفورت: «أصبح مفهوم العقل هو إقرار بلاعقل واعتراف باللاوعي كعناصر أساسية في تركيب الجوهر الإنساني الذي أصبح يشارك في صنع الحقيقة الأمر الذي جعل مدرسة فرانكفورت تعتبر الأسطورة في زمانها عقل»[3] وصاحبة الرسالة بن عمر جميلة تؤكد بأن هوركهايمر وأدرنو كانا واقعان تحت تأثير الروح النيتشوية، وذكرت بأن هبرماس حاول تصحيح هذا الوضع بالتقليل من التأثير

=والموجود بمصلحة الرسائل الجامعية بالمكتبة المركزية. الدراسة الميدانية كانت بتاريخ ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٧م.

(١) بودومة، عبد القادر - الكتابة وتجربة الاختلاف عند نيتشه- إشراف: مولفي محمد- رسالة ماجستير، جامعة وهران ٢٠٠٣م. ص١٢٦.

(٢) المرجع السابق. ص ١٢٧.

(٣) ابن عمر، جميلة- المعرفة التاريخية والنظرية النقدية عند فلاسفة مدرسة فرانكفورت- إشراف: ابن مزيان ابن شرقي- رسالة ماجستير، جامعة وهران ٢٠٠٤م. ص١٥٠.

الكبير الذي كانت تمارسه فلسفة نيتشه على بعض ممثلي مدرسة فرانكفورت، ولكن المدرسة عموما تبقى في جوهرها قائمة على النقد: «باعتباره ميراث ألماني، ولكن هذه المرة لا من حيث هو تفكير نظري وإنما جهد انصب على الجمع بين الممارسة والنظرية»[١]. بالنسبة لماركوز مثلا فهو الآخر ينظم إلى المسعى الذي يهدف فتح العقل على الخيال والحساسية من أجل التحرر من أشكال القمع والعنف التي تعرفها مجتمعاتنا المعاصرة. يقول عطار أحمد: «يولي ماركوز عنايته واهتماماته بوجهة العقل التقني المعاصر، أين أصبحت أي محاولة لفتح آفاق جديدة، مرفوضة بسبب أجهزة قمع وعقلنة معاصرة، تقنن العنف وتستعمله عبر مؤسساتها وأجهزتها»[٢] وكأن الابتعاد عن الفلسفة المثالية الحديثة والانغماس في نمط حياتي مادي وتقني أفقد الحياة كل معنى (معنى الوجود) وهاهم الفلاسفة الألمان أنفسهم بعد الحرب العالمية الثانية وأثنائها، هم الذين استطاعوا أن يشخصوا حال الحضارة، ويكشفوا بدورهم عن طرق الخلاص، رغم تورط نظامهم السياسي الدكتاتوري في أخطر صراع عرفته البشرية، والتي حاولت الأنظمة المقاومة له أن تحمل الفلسفة الألمانية وبالخصوص فلسفة هيجل وفلسفة نيتشه مسؤولية الحرب والدمار، إلا أن: «المجتمع الأمريكي - باعتباره يمثل أوج الحداثة - مجتمع عنيف، في حين أن المجتمع السوفياتي لا يقل عنه»[٣] بمعنى أن أكبر قوتين منتصرتين على النازية هما كذلك حاملتان لأشكال جديدة من العنف.

فيما يخص الفلاسفة الألمان فإن تقليد الانزياح والاختلاف والممكن الذي يرمز إلى الحرية كبديل عن النسق المغلق/Le système، أصبح عندهم متوارثا من جيل إلى جيل، فبالنسبة لغادمير مثلا: «ينتهي الأمر «بالحقيقة» في مفهومها الواسع، بالخروج من كونها تطابق الفكرة نع موضوعها، تطابقا خالصا، لتصبح أكثر انفتاحا لإمكانيات تجليها والذي مهما بلغت درجة تخارجها لن تعبر إلا عن نسبيات تفتح المجال لنشاطية الفكر الحر المستمر في عطائه الخصب... أصبح التعامل مع «الحقيقة كتجربة» يراد استخراجها من

(١) المرجع السابق. ص ١٥٠.

(٢) عطار، أحمد- المجتمع الغربي في الخطاب المركوزي- إشراف: مولفي محمد- رسالة ماجستير، جامعة وهران ٢٠٠٧م. ص أ من الخاتمة.

(٣) المرجع السابق. ص ه الخاتمة.

مجالاتها الثقافية التي تعبر عن الوجه الحقيقي الذي يمثل الإنسان في عالمه الذي يعيشه»[١] مرة أخرى يتم تجاوز فعل «التطابق» و«المطابقة» فيما يخص المعنى الذي نعطيه للحقيقة التاريخية في علاقتها مع حوادث وقعت بالفعل وفق ظروف وشروط لا يمكن بأي حال من الأحوال الإلمام بها بدعوى تحقيق الموضوعية، إننا لم نخرج بعد من التأويل في علاقته مع الاختلاف: «إذن فلسفة التأويل هي القاعدة المؤسسة «لمنطق الاختلاف» حيث كل تأويل يبدو مختلفا عن التأويلات الأخرى المطروحة، مما يثري الفكر ويسمح بتخارج قدر كبير من إمكانيات التفكير»[٢].

إلا أن البحوث المتوجهة نحو الفكر الألماني تعي محدودية هذا الفكر وعدم قدرته على الارتقاء إلى الشمولية والعالمية بسبب ارتباطه الشديد بالمسيحية، كما هو شأن فلسفة ليبنتز مثلا، ما جعل هذه الأخيرة تعمل على إحياء لغة قديمة، أو لغة واحدة وشاملة هي لغة آدم. يقول بلبولة مصطفى عن هذا المشروع الغوي أنه: «حلم يغذيه النزوع إلى إضفاء شيء من القداسة على اللغة، لأن الفكرة - في أساسها، وكما بينا من قبل - مستوحاة من الكتاب المقدس في الثقافة الغربية، وهي فكرة البحث عن لغة آدم»[٣] ويبين قواسمي مراد محدودية الفلسفة النتشوية التي لم تولي اهتماما لمسألة التواصل بين أفراد الجنس البشري، لأنها فلسفة للأعماق وليست فلسفة للمسافات أو كما يقول بودومة: «كان نيتشه يفضل الأعماق بدل المسافات»[٤] وكما يقول قواسمي: «لقد كان نيتشه يرى من الداخل لا من الخارج»[٥] هذا ما يجعل بعضا من قراء نيتشه يعتبرونه «ضد-إنساني». إن الفلسفة إلى حد اليوم هي غير مكتملة/Inachevé، وبالتالي فليس من الداعي الاستناد كلية على

(١) ابن عودة، أمينة- مكانة المعرفة التاريخية وتجربة الحقيقة في التاريخ عند هانس جورج غادمير- إشراف: ابن مزيان بن شرقي- رسالة ماجستير، جامعة وهران ٢٠٠٤م. ص ١٦٢/١٦٥.

(٢) المرجع السابق. ص ١٧١.

(٣) بلبوبة، مصطفى- مشروع اللغة الكونية عند ليبنتز- إشراف: الزاوي حسين- رسالة ماجستير، جامعة وهران ٢٠٠٦م. ص ١٦٨.

(٤) بودومة، عبد القادر - الكتابة وتجربة الاختلاف عند نيتشه- إشراف: مولفي محمد- رسالة ماجستير- جامعة وهران ٢٠٠٣م. ص١٢٩.

(٥) قواسمي، مراد-تصور التاريخ عند نيتشه (دراسة في سؤال الأصل ومشروع التأويل)- إشراف: ابن مزيان بن شرقي- رسالة ماجستير، جامعة وهران ٢٠٠٤م. ص ١٦٤.

الفلسفة الألمانية أو غيرها واعتبارها المخلص، لا بد للتأسيس من جديد لفلسفة تتوافق مع مطلب الإنسانية اليوم، والمتمركز خصوصا حول «التسامح» و«الغفران». يقول قواسمي: «هاجسنا لاحقا. تأسيس الفلسفة على مفاهيم «الغيرية»، «التواصل» و«الاختلاف» الذي يتعرف بكل ذات، ولا يمارس الاستثناءات ولا الاقصاءات.»[1] وإن كان الباحث يرى بأن هذا التأسيس الجديد لا بد أن يعتمد على بعض المرجعيات التي يحصرها كلها في الفلسفة الألمانية سواء تعلق الأمر بكانط أو بشلارمخر أو دلتاي أو غادمير مما يدل على التأثير الكبير والمكانة المهمة التي تحتلها الفلسفة الألمانية عند كثير من الباحثين، مما يعني أنها ليست فلسفة بعيدة عن الواقع.

الملاحظ إذًا أن الأطروحات المخصصة للفكر الألماني يخرج أغلبها بنتائج متشابهة من حيث أن تحرير الإنسان من سلطة التقنية، ومن سلطة الأنظمة «التوليتارية»، واسترجاع المعنى الضائع... كلها أهداف يحاول المفكرون الألمان بلوغها.

الملاحظ أيضا أن المثالية الألمانية مختلقة عن المثالية اليونانية لأن هذه الأخيرة وخاصة مع أفلاطون تعتبر بأن الحقيقة تكمن في عالم منفصل عن العالم الحسي الذي يعيش الإنسان فيه، وجهد الإنسان لا يتوجه بالخصوص إلى تحسين عالمه الحسي الواقعي، بقدر ما يسارع إلى طلب الموت والتطهر عن طريق إماتة الشهوات. أما بالنسبة للفكر الألماني فهو على العموم يفكر بالمفهوم ويجتهد في إنتاجه والعمل به، ومن هنا يظهر أمه يواصل في نفس طريق الفلسفة اليونانية التي وجهت عنايتها مع سقراط إلى المفهوم باعتباره يعبر عن ماهية الأشياء. الفلاسفة الألمان يرون بأن المفهوم هو الوسيلة الوحيدة لفهم الواقع وبالتالي التحكم فيه، والحقيقة لا تكمن عندهم في عالم مثالي منفصل عنا بل الحقيقة مرهونة بمدى قدرة الإنسان على التأمل في شروط وجوده السياسية العلمية والثقافية...والتعبير عن واقعه بطريقة مفاهيمية، تمنح للمفهوم سلطة.

(١) المرجع السابق. ص ١٦٤.